نحو أدب عراقي جديد

السبعة الأدبية

بقلم عبد المحسن الحكيم

علامة واحدة تميز العصر الحديث عن العصور التي سبقته الى الوجود وسبقته الى تنظيم نفسها ، ومعارفها ، وحياتها العامة : هي شدة شعوره بالتبعة واحتماله المسؤولية .. وإذا لم تكن هذه العلامة ملحوظة في قوانينه وقواعد اخلاقه ونظمه ، فلا بد له منها قبل ان نضفي عليه نعوت التقدم والارتقاء ، او نحسب انه الزمن الذي حقق للانسان غاية وجوده في كشف مغالق الطبيعة والاستيلاء على اغلب اسرار الوجود .. لان العصور سواء في جهلها وعلمها باصول الاشياء وقوانينها إذا لم تستفد من علمها بتلك الاصول طريقة للحياة تكفل خلوها من الحيف والجور على الحقوق والافتئات على الواجبات .

وليس اكثر خطأ من تميز العصر الحديث بكثرة علومه وتوسعه في المعارف وهو لا يتميز بنظرته الى الفرد ، وتعيينه وظيفته في الحياة الاجتماعية والحياة الانسانية بوجه عام .. وعندي ان العلوم ليست شيئاً على الاطلاق إذا لم توجه الفرد نحو الجماعة ، وتطوعه للنهوض بثقافتها الذهنية ووسائلها في المعاش ، وان التقدم الحق هو قدرة الفرد على احتمال قسطه من التبعة إزاء مجتمعه من غير إهمال لمطالبه هو بالذات في العلم والحياة والتفكير .

ومهمة الاديب من ثمة غاية في الصعوبة .. إذ قدر له هو خاصة ان يتفهم الاتجاه العام للجماعة ، ويرقب ببصيرته النافذة سيرها نحو خيرها او نحو شرها ، ويرى من كثب قابليتها على تغيير نمطها او لجاجتها في الاحتفاظ به على رغم الناقدين والمنكرين .. فيتعين من هنا نصيبه الكبير من المسؤولية .. لانه دون سواه يستطيع ان يحذر الأمة من اتجاهها حين يرى المزالق الكثيرة التي تنتظرها فيه ، او يشجعها عليه حين يرى اتفاقه مع المثل الأعلى الذي تتغيه النفوس المثقفة ، والعقول النيرة ، وطبيعة الأمة نفسها .

وبعض المذاهب الفكرية المعاصرة يرسم للاديب هذا النحو من المسؤولية دون ان يعتدي على حريته في اختيار موضوع تفكيره ، ونوعه ، وسبيله اليه . إذ يعد مسؤوليته الادبيه جزء جزءاً من حريته يقوم بها الأديب او يجب ان يقوم بها كما يقوم العضو الحي بوظيفته في البنية الحية .

وقد اتسع بمذهب هؤلاء مفهوم التبعة او الالتزام — كما يعبر اغلبهم — بقدر ما رتبوا على آثار الأديب من نتائج .. مما يضطر الأديب ان يغير مذهبه في التعبير عن آرائه وبحوثه ، وإرسالها احياناً او في اكثر الاحايين في غير تحفظ ولا احتياط .. ويخيل اليّ ان حاجتنا نحن خاصة الى الالتزام توجبها اليوم اسباب متعددة لا سبيل الى حصرها .. واهم هذه الاسباب جميعاً — او من اهمها — اننا في بداية نهضة فكرية مهمة يلمع اليها هذا القلق البادي في ادب المنتجين الناشئين ، ويبدو بصورة خاصة في اتجاه معظمهم الى الرمز والشعر المرسل الذي تلقفوه من بعض القائلين في لبنان .. وهذه الظاهرة توشك ان تجتاح بعض من عوّلنا على ادبهم في إقامة اسس جديدة لأدب جديد .. فرأينا اخيراً الشاعرة المجيدة نازك الملائكة التي استبشرنا بظهور ديوانها « عاشقة الليل » ايما استبشار تنصاع هي الاخرى لآفة الرمز والشعر المرسل فيطغى هذا اللون الجهم من الشعر على ديوانها « شظايا ورماد » وعلى آثارها جملةً بعد ظهور هذا الديوان .

وتعليل هذه الظاهرة بالظروف المتأزمة التي يمر بها العراقيون اليوم لا تفيدنا شيئاً بقدر ما يفيدنا إرجاعها إلى عامل القلق الذي تستوجبه مراحل الانتقال في الامم ذوات التاريخ والأمجاد .. ولا شك ان الصراع بين الموروثات القديمة وبين اسباب الحضارة الحالية يبلغ اشده اليوم في ضمائر العراقيين وعقولهم وقلوبهم .. وإن كانت آثاره اقل خصباً مما كان للمصريين في اول هذا القرن لأسباب موضعية لا مجال لذكرها الآن .

وقد نشطت بعض الفئات الى استغلال ذلك القلق في الشباب لتحويله عن موضوعه ، وتضليله في سيره .. وكانت سبيلها الى ذلك بالغة الحساسية .. إذ خاطبت فيهم عواطفهم التي لم يتم لها التعقل فوجهتها نحو بعض المشاكل اليومية المثيرة ، واغرتها بها .. فأصابنا من جراء ذلك حصر في الذهن ، وضيق في الآفاق ، واغراق في واقعية لا حدود لها .

ومن هنا عظمت حاجتنا الى ادباء يقدرون مواقع كلامهم ، ويشتدون على انفسهم قبل ان ينشئوا ادبهم ويذيعوا اعمالهم

فيه .. ويحرصون على ان يكون ادبهم خلاّقاً ، منبثقاً من طبيعة المجتمع وروحه العامة ، ملبياً في الوقت نفسه حاجته الى التطور وطموحه إلى الارتقاء .

ويعوزنا في هذا الطور القلق من حياتنا الادبيـــة حاسة الاقتباس .. بمعنى ان تتجه فئة من الجامعيين الذين يعوّل عـلى اذواقهم الفنية وفهمهم لشؤون الفكر إلى الغرب لدراسة آثار اقطابه في الفترات القلقة من تاريخه .. للاستفادة من مناهجهم في التفكير وطرقهم في تناول دراساتهم للقضايا الفنية والاجتماعية والفلسفية إذ ذاك .. وفي تاريخ مصر الادبي الحـديث امثلة كريمة يمكن الاستفادة منها والاعتماد عليها في هذا الموضوع .. خاصة حيوات قسم من اعلامها امثال الدكتور طـه حسين ، والعقاد ، وتوفيق الحكيم .. وقد قام كل من هؤلاء بحظه من التبعة الادبية في اروع صورها .. فاضطهد الدكتور طـــه وقووم من قبل السلطات اشد مقاومة ، وصودرت بعض كتبه وكادت احياناً ان تصادر حريته هو في الكتابة والنشر .. كما أسيء الظن بالاستاذ العقاد من اجل آرائه الجريئـــة .. فلغط اصحابها بامر الايدي الاجنبية التي تحثه على الانتاج ، وتعين له مجاله فيه .. وكان التزام توفيق الحكيم من نوع آخر .. التزم من ناحية الفن ومن ناحية المجتمع معاً فسجل صراعه في سبيـل فنه في كتابه الرائع « زهرة العمر » كما سجل التزامه الاجتماعي في عداوته للمرأة وتخوفه من حركتها منذ ثلاثين عاماً تقريباً .. وقد صمد هؤلاء على مذاهبهم في القول عـــلى رغم القوى التي كانت ترصد افكارهم وتناهض مناحيهم فيها .

وفي الشعور بالتبعة الادبية مزية اخرى نلحظها ، ونحن نقرر ضرورتها للاديب ولزومها له ، هي تأكيدها على الجانب الذاتي في الفرد ، وعملها لاظهار قوته في نشاطه وسلوكه .. ومن ثمة نقدر ان تسلم اعماله الفكرية من الزغل ، وتتجرد آراؤه من الاستخذاء لدواعٍ لا صلة لها بفنه وادبه .. وقصارانا في هذه السطور ان نلاحظ ان ظهور شخصيتنا الادبية موكول الى مدى فهمنا للواجب الادبي ، وتقديرنا للتبعة باوسع معانيها فيما نكتب وفيما نقول في سائر الموضوعات .

بغداد — **عبد المحسن الحكيم**

دار بيروت ـ للطباعة والنشر

بناية الغازارية ، تلفون ٣٠٣٠ بيروت ـ لبنان

صدر حديثاً

زين العـــابدين

علي بن الحسين عليه السلام

للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل — الثمن ليرة لبنانية

من الزاويـــة العربية

للدكتور نبيه امين فارس — الثمن ليرة لبنانية

هـــذه هي القومية

ترجمة الاستاذ محمد عيتاني

الثمن ليرة ونصف

تطلب هذه الكتب وغيرها من منشورات الدار من

وكيل الدار في عموم افريقيا السيد محمد خوجه — تونس

وكيل الدار في عموم العراق السيد محمود حلمي — بغداد

اطلبوا جميع منشورات

دار الفكر العربي بمصر

كتب ادبية ـ وعلمية ـ وفلسفية

وجميع كتب القانون

من الوكلاء العموميين

لسوريا ولبنان وشرقي الاردن

دار الثقافة ببيروت

شارع السور — بناية الغراوي — ص.ب ٥٤٣

تليفون ٣٥ — ٦٧